اليأس طاقة تفجيرية . وكانوا يسألونك : كيف ننجو ؟. وكنت تكلمهم عن حقوق الاخرين ، فيضيقون ذرعا ، ويقررون : ليس أمامنا الا القتال . لا مفر . لن نموت بلا سلاح . الموت في ميدان القتال خير من الموت في البيت . وتتفجر فيهم حاسة مسادة الانتحارية . ويشربون بشراهة كأنهم يشربون الحياة . ويتصالح العاشق مع عشيقته . وتتحول العذارى الى أمهات بسرعة مدهشة . ويعود المطلق الى زوجته . وتأتلف الاحزاب المتعارضة وتنشأ جبهة قومية ، ويبحثون عن بطل قومي .

ويودعونك ولا يعودون .

٤

وحين تسير في شوارع المدينة ، تكون وحدك . لا لونك يعلن هويتك ، ولا مطاردة البوليس لك . ان الشارع نفسه يطاردك ويعلنك . لانك الشاب الوحيد . ومن يمشي في الشارع في تلك الايام يكون عربيا . يلعنك الاطفال والشيوخ ، فتخجل من السير في الشوارع . اكشاك الفلافل والسندويتشات خالية . دور السينما خالية . البلاد كلها خالية من الشباب . صحف كثيرة لا تعرف من يقرأها ومن يوزعها . ولكنك ترى ان أولاد المدارس الصغار هم الذين يوزعون زجاجات الحليب والبريد .

وعلموك ان تحذر الفرح ، لان خيانته قاسية . فمن أين جاءك فجأة ؟.

يقترب الانتظار من الانفجار . وتسألك أمك ، أن تعتني بسلامتك . والمصير — كل المصير يأخذ شكل طلقة . ترى الحرب ولا ترى موتا . تخرج منك الذكريات الى الابد . ولا وقت للتصور القادم . تذكر ، فجأة ، أن فلسطين بلادك . يأخذك الاسم الضائع الى عصور ضائعة . كأن هذه المرأة النائمة على ساحل البحر الابيض المتوسط تصحو دفعة واحدة حين تناديها باسمها الفاتن . حرموك من الاناشيد المدرسية القديمة وسيرة الثوار والشعراء الذين خاطبوها . الاسم يعود ... يعود أخيرا من رحلة العبث . تفتح خارطتها كأنك تفتح ثياب حبيبتك الاولى لاول مرة : كان شيء يشبه الفضة — كانت طبريا . تصعد القدس الى خصر اله . صفد طارت الى أول قبلة . وفي عكا أجلسك الحب على صخرة البحر . ترى الى الخارطة وتصفر لحنا مرحا مرحا . وتنسى حيفا لانك دائما تنسى قلبك . تشعر بصداقة عميقة مع الايام . لم تكن قاسية الى الحد الذي تتصوره ، ولكن مزاحها كان سمجا أحيانا . دنيا !.. تمد أصابعك الطويلة الى أجزاء المرأة الذكية النائمة على ورق صقيل : الخصر رفيع يشربه البحر وخطوط الهدنة . ثم تقبلها وتعانقها وتموت من اللذة — الوعد . ولا تقف على أرض ، سابح...سابح مفتون بالغموض. وتذكر طفولتك القاسية وطفولة المستقبل والاشجار. ثم تقطع شوارع عكا ، وتقف طويلا عند شارع بيروت . كنت تشعر بالمعجزة يوم كان اصدقاؤك الكبار يخبرونك عن رحلاتهم الاسبوعية الى دمشق وبيروت والقاهرة . تأخذ القطار من حيفا ، يمر القطار في العريش ويوصلك الى القاهرة . تأخذ سيارة أجرة من عكا ، وبعد أقل من ساعة تكون في ساحة البرج . وتكمل السهرة عند ضفة بردى الذي تصورته في حجم الفرح . تسألهم : هل كانت بيروت والقاهرة ودمشق قريبة الى هذا الحد . كانت ... كانت أقرب . وكانت فلسطين ملتقى الشرق . وفيها غنى عبد الوهاب وأم كلثوم . لو وقفت على الاهرام وقذفت حجرا على فلسطين لوصل عصفورا . والآن ، ماذا ؟ يخرج عصفور من فلسطين فيبيض سربا من اللاجئين عند ضواحي دمشق . مزقونا فتكاثرنا لاجئين . شيء في الداخل وشيء في الخارج . في الخارج — ينمو الاطفال على حليب وكالة الغوث فيتحول في عروقهم الى دم فلسطيني . وفي الداخل تأكل من قمح مرج بن عامر وتصبح « مواطنا اسرائيليا » . وتقضي نصف عمرك لكي تجد اعترافا واحدا بأنك « مواطن فلسطيني » فلا تجد . ويوم هبط الانسان